الصباح الإسلامية
09
العدد 1636 - السنة السادسة
الاربعاء 7 شوال 1434 - الموافق 14 اغسطس 2013
Wednesday 14 August 2013 - No.1636 - 6th Year

أم نبي الله إسماعيل السيدة هاجر وكذلك زوجته مثالان واضحان وأسوة حسنة للمسلمين

المرأة المسلمة نموذج عملي للحفاظ على الأسرة .. والأمة

سيرة الأنبياء سيرة عطرة ذكية ما أحوجنا لاستنشاق عبيرها، وهي كتربة خصبة تؤتي أكلها كل حين لمن أراد قطف ثمارها، ومن تلك الثمرات التي يطيب لنا تناولها وأخذ العبرة منها تلك الثمار المباركة من صفات النساء المؤمنات اللائي عاصرن العهود النبوية الشريفة ومن هؤلاء:

هاجر ام اسماعيل عليه السلام، وموقف إبراهيم عليه السلام مع زوجتا ابنه إسماعيل عليه السلام ذلك الموقف الذي يبين لنا سلوك الزوجة التقية النقية كما يجب أن تكون، وكذلك يبين لنا ما يجره السلوك غير المسؤول للزوجة في الدنيا والآخرة.

هاجر الصابرة الحكيمة وعقبى الصبر الجميلة

حقاً إنه لموقف عجيب، فقد نقدر موقف إبراهيم عليه السلام بترك ابنه وزوجه في وادٍ غير ذي زرع بأنه الطاعة لله والاستسلام، أما أن تبقى زوجة مع رضيعها وحدهما في هذا المكان، ويتركها زوجها ويرحل فتصبر وترضى فهذا حقا يدعو للعجب..! ولكن سرعان ما يزول كل العجب عندما نسمع قول هذه المرأة المؤمنة عندما سألت وكررت السؤال على زوجها: لمن تتركنا؟ وهو لا يجيب إلا بعد أن ألقى الله على لسانها «الله أمرك بهذا؟!» فيقول: نعم. فترد قائلة: (إذاً لا يضيعنا)، وهكذا فعندما يكون هذا هو موقفها فإنما يكشف عن مقدار إيمانها وثقتها في خالقها، فلما رجعت لصاحب الأمر اطمأن قلبها، ورجعت عنها كل المخاوف.

وكذلك كانت هاجر عليها السلام نعم الزوجة الصالحة المعينة لزوجها على طاعة ربه.. فلم تعص له أمراً، ولم تعجل بأخذ صغيرها، وتسابق الخطى راحلة من هذا المكان الموحش فراراً بنفسها ورضيعها، ولكنه الإيمان والثقة في الله،فهنيئا لهم جميعا بحسن الثواب، تلك الأسرة المباركة والأصل المبارك لسيد الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم.

قصة إبراهيم عليه السلام مع زوجتي إسماعيل

وقصة إبراهيم عليه السلام نبع فيّاض بالخير لمن أراد أن ينهل منه، ففيها يجد الباحث مبتغاه في العديد من جوانب الحياة، في حسن العبادة والتمسك بالحق، وفي علاقة الأب بابنه وحرصه على مصلحة ابنه بمشاركته له في الخير حتى يشاركه الأجر والثواب، وفي الصبر على الابتلاء والثبات في المحن والشدائد، وكذلك موقفه مع زوجتي ابنه؛ إذ بتأمل هذه القصة نحصد الكثير من العبر، وتظهر جليا صفات الزوجة الصالحة من الطالحة.

فعندما زار إبراهيم بيت ابنه إسماعيل عليهما السلام لم يجده، ووجد امرأته، فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا أو يصيد لنا، ثم سألها عن عيشهم فقالت: نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه، وهكذا أساءت لنفسها قبل أن تسيء لزوجها، فقد كشفت سر بيته، ولم تحفظه في غيبته، ثم إنها لم ترض بقدر الله عزّ وجل لها فالمشتكي معترض على قدر الله، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن قال لها: اقرئي زوجك السلام وأبلغيه أن يغيّر عتبة داره.

وفعلاً عندما عاد إسماعيل عليه السلام روت له ما جرى، فأدرك أن هذا الشيخ الزائر هو أبوه، وقد رأى أن يفارق زوجته فقال لها: الحقي بأهلك.

وما لبث إبراهيم عليه السلام، وعاد لزيارة بيت ابنه مرة ثانية حيث وجد امرأة غير الأولى، فسألها عن زوجها فقالت: خرج يبتغي لنا، فقال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله تعالى، فدعا لهما، وقال لها: اقرئي زوجك السلام، وأبلغيه أن يثبت عتبة داره. وفعلاً عندما عاد إسماعيل عليه السلام روت له ما كان من هذا الشيخ فقال لها: هذا أبي أمرني أن أمسكك.

وبتأمل حال كلتا الزوجتين نجد أن الجزاء من جنس العمل، فمن رضيت وحمدت بقيت، ومن اشتكت حال بيتها حُرمت من البقاء فيه، ورحلت إلى أهلها، وخسرت رفقة زوجها وأنيسها، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالجزاء عظيم أيضا.

فقد وصف الله عزّ وجل ـ العلاقة الزوجية بأنها ميثاق غليظ، وأمانة وقد قال تعالى: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً» سورة الإسراء.

والزوجة مؤتمنة على بيت زوجها، وهي راعية فيه ومسؤولة عن رعيتها، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضياع الأمانة؛ إذ قال: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة».

وكذلك جعل الله عز وجل لهذه العلاقة أسساً وقواعد لكي تُبنى عليها، وأهم هذه القواعد المودة والرحمة، وليس من المودة والتراحم أن يكشف كل من الزوجين حال الآخر، أو أن تقوم الزوجة بالتشكي والتأفف من معيشة زوجها ورزقه، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عاقبة هذا السلوك غير السوي من الزوجة عندما روى أن أكثر أهل النار من النساء فلما سُئل قال: «لأنهن يكفرن العشير»، أي التنكر للخير وكثرة الشكوى. فلتحذر كل زوجة من هذا السلوك، فالعاقبة غير حميدة في الدنيا وكذلك الآخرة.

الزوجة الراضية

أما الزوجة الراضية الحامدة لله فقد بقيت في دارها، سعيدة برفقة زوجها، مباركا لهما بدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكذلك هي في زيادة من الخير مصداقاً لقول الله عزّ وجل «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» سورة إبراهيم: (7).

ومن الزيادة المباركة لهذه الزوجة الراضية أن يخلد ذكرها إلى يوم القيامة، وتذكر بين الناس بأنها زوجة صالحة، وبأنها نعم الزوجة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة».

وكذلك من بركة دعاء إبراهيم عليه السلام لهذه الزوجة هي وزوجها أن جاء من نسلهما خير مولود على الأرض، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، من ذرية إسماعيل عليه السلام، من هذه الجدة المباركة والزوجة الصالحة الراضية.

رضا الزوج سبب في دخول الجنة

وهكذا نتعلم أنه بحسن الأخلاق والعشرة الطيبة تنال الزوجة خيراً عظيماً في آخرتها برضا زوجها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة».

وفي نهاية هذا الموقف لإبراهيم عليه السلام مع زوجتي ابنه، لا نستطيع أن نفارق هذه القصة دون الولوج للسيرة العطرة للأم العليا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي الزوجة الصابرة الحكيمة السيدة هاجر زوجة إبراهيم عليهما السلام التي تبين لنا قصتها حال الزوجة كما يجب أن تكون حقا، وتضرب لنا مثلاً في الصبر في السراء والضراء وحين البأس، حيث الموقف العصيب الذي تركها فيه إبراهيم عليه السلام برضيعها في ذلك المكان الموحش، وهو مبتلى بهذا الأمر الرباني، إنه حقا ابتلاء للزوج المحب والأب الحنون المشتاق للولد بعد صبر طويل، وعندما يُرزق به يأخذه، ويتركه بعيدا عنه، ولكنه الرضا والتسليم لأمر الله عزّ وجل.

ثمرات مباركة للزوجة الميمونة

وأخيراً نجمل تلك الصفات الحميدة التي تزيّنت بها كل من زوجة إبراهيم عليه السلام، وكذلك زوجة ابنه إسماعيل عليه السلام حتى نقف على تلك المحاسن علنا نقطف منها خير الثمرات:

فالزوجة كما يجب أن تكون هي حقاً امرأة تحافظ على سر بيتها وأسرار معيشتها. ترعى سمعة وعرض زوجها حتى في غيبته. تكرم ضيفها وتقوم بحقه.تصدق زوجها فتبلغه عن كل شيء في حياتها خاصة ما حدث في غيبته. امرأة لا شكوى لها ولا ضجر من شظف العيش. تحسن استقبال زوجها بالأخبار الطيبة، إنها المرأة التي لا يشقى معها زوجها، فهي خير مُعين له على طاعة ربه. راضية برزقه سعيدة بعشرته. ومثل هذه الزوجة هي حقاً التي يسر بها الزوج إذا نظر إليها، الطائعة له إذا أمر. الراضية أولاً وأخيراً برزق الله لها وقدره.

مشى النبي على أطراف أصابعه يوم دفنه من كثرة الملائكة

«ثعلبة» صحابي جليل هارب من جهنم بين الجبال

كان ثعلبة بن عبدالرحمن رضي الله عنه، يخدم النبي في جميع شؤونه، وذات يوم بعثه رسول الله في حاجة له، فمر بباب رجل من الأنصار فرأى امرأة تغتسل فأطال النظر إليها.

فأخذته الرهبة وخاف أن ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بما صنع، فلم يعد الى النبي صلى الله عليه وسلم ودخل جبالا بين مكة والمدينة، ومكث فيها قرابة اربعين يوما،فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا محمد: إن ربك يقرئك السلام ويقول لك ان رجلا من أمتك بين حفرة في الجبال متعوذ بي.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب وسلمان الفارسي:

انطلقا فاتياني بثعلبة بن عبدالرحمن، فليس المقصود غيره.

فخرج الاثنان من انقاب المدينة، فلقيا راعيا من رعاة المدينة يقال له زفافة،فقال له عمر: هل لك علم بشاب بين هذه الجبال يقال له ثعلبة؟ فقال لعلك تريد الهارب من جهنم؟ فقال عمر: وما علمك أنه هارب من جهنم؟ قال لأنه كان إذا جاء جوف الليل خرج علينا من بين هذه الجبال واضعا يده على أم رأسه وهو ينادي: يا ليتك قبضت روحي في الأرواح، وجسدي في الأجساد، ولم تجددني لفصل القضاء؟ فقال عمر: إياه نريد، فانطلق بهما، فلما رآه عمر غدا إليه واحتضنه، فقال: يا عمر هل علم رسول الله بذنبي؟ قال: لا علم لي إلا أنه ذكرك بالأمس، فأرسلني أنا وسلمان في طلبك، قال: يا عمر لا تدخلني عليه إلا وهو في الصلاة، فابتدر عمر وسلمان الصف في الصلاة، فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يا عمر يا سلمان، ماذا فعل ثعلبة؟ قال هو ذا يا رسول الله، فقام الرسول فحركه وانتبه، فقال له: ما غيبك عني يا ثعلبة؟ قال ذنبي يا رسول الله، قال أفلا أدلك على آية تمحوا الذنوب والخطايا؟ قال بلى يا رسول الله، قال: قل «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، قال ذنبي أعظم!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل كلام الله أعظم

ثم أمره بالانصراف إلى منزله، فمر من ثعلبة ثمانية أيام،ثم أن سلمان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله هل لك في ثعلبة فانه لما به قد هلك؟ فقال رسول الله: فقوموا بنا اليه، ودخل عليه الرسول فوضع رأس ثعلبة في حجره،لكن سرعان ما أزال ثعلبة رأسه من على حجر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له لم أزلت رأسك عن حجري؟ فقال لأنه ملآن بالذنوب، قال رسول الله ما تشتكي؟ قال: مثل دبيب النمل بين عظمي ولحمي وجلدي،قال الرسول الكريم: ما تشتهي؟ قال:مغفرة ربي، فنزل جبريل فقال: يا محمد إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك: لو أن عبدي هذا لقيني بقراب الأرض خطايا لقيته بقرابها مغفرة،فأعلمه النبي بذلك، فصاح صيحة بعدها مات على اثرها.

فأمر النبي بغسله وكفنه،فلما صلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم

جعل يمشي على أطراف أنامله،فلما انتهى الدفن قيل لرسول الله:

يا رسول الله رأيناك تمشي على أطراف أصابعك.

قال الرسول: والذي بعثني بالحق نبيا ما قدرت أن أضع قدمي على الأرض من كثرة ما نزل من الملائكة لتشييعه!!

الإنسان خطاء وخير الخطائين التوابون، فالواجب علينا أن نعود أنفسنا دائما على التوبة النصوح، وليحرص كل منا على ذكر هذا الدعاء الذي علمنا اياه الرسول صلى الله عليه وسلم:

«اللهم أنت ربي لا اله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». استغفر الله العظيم الذي لا اله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه. «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

الألفاظ أثبتت نعم الله على الناس رغم كفرهم

«جنتا سورة الكهف».. إعجاز علمي قرآني بين

يقول الله تعالى: «واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعًا. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرًا. وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرًا» (الكهف: 32-34).

يقول الشيخ حسنين محمد مخلوف -رحمه الله- في تفسيره « كلمات القرآن تفسير وبيان: جنتين: بستانين، وحففناهما: أحطناهما وأطفناهما، ولم تظلم منه: لم تنقص من أكلها، وفجرنا خلالهما: شققنا وأجرينا وسطهما، ثمر: أموال كثيرة مثمرة.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن السعدي -رحمه الله- في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: وحففناهما بنخل: أي في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصًا أشرف الأشجار العنب والنخل، فالعنب وسطها، والنخل قد حف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل لها الثمار، وتنضج وتزدهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعًا، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟

وهل لها ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلتا الجنتين أتت أكلها: أي ثمرها وزرعها ضعفين أي: متضاعفا وأنها (لم تظلم منه شيئا) أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك فالأنهار في جوانبها سارحة، كثيرة غزيرة.

ثم قال: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وأرجحت أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث).

ويقول د.وهبة الزحيلي -حفظه الله- في التفسير المنير: (ذلك المثل هو حال رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين (أي بستانين) من أعناب محاطين بنخيل، وفي وسطهما الزرع، وكل من الأشجار والزرع مثمر مقبل في غاية الجودة، فجمع بين القوت والفاكهة (وحففناهما بنخل) أي وجعلنا النخل محيطا بالجنتين.

وقال: «وفجرنا خلالهما نهرًا» أي وشققنا وأجرينا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع منه عدة جداول، تسقي جميع الجوانب.

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله- في تفسير التحرير والتنوير.

ومعنى: (حففناهما). يقال: حفه بكذا إذا جعله حافا به، أي محيطا.

- ومعنى «وجعلنا بينهما زرعًا» الهمناه أن يجعل بينهما، وظاهر الكلام أن هذا الزرع كان فاصلا بين الجنتين: كانت الجنتان تكتنفان حقل الزرع فكان المجموع ضيعة واحدة.

ونحن نقول وبالله التوفيق: هذا مثل متميز ورائع لجنتين مثمرتين توافر لهما كل أسباب النمو والازدهار والإثمار والحماية والرعاية من الضوء والحرارة والرياح والماء والانفاق والرعاية والاهتمام فهما جنتان من أعناب في الوسط يحيط بهما النخيل العالي الجميل، وبينه الزروع التي تملأ الفجوات الكبيرة ليتبادل النخيل الوضع مع تلك الأشجار المثمرة وفي الداخل يوجد البستان المليء بالعنب الذي يجاوره في بعض المواسم بعض النباتات الحولية المثمرة، ويشق البساتين نهر عظيم متدفق يكفي لري البساتين وما يجاورهما من بساتين أخرى، والخدمة متميزة في البساتين لمقدرة صاحبيها على الإنفاق عليهما ولفلاحتهما فلاحة متميزة وكثرة الرجال عنده (وأعز نفرا) والدليل قوله تعالى: «كلتا الجنتين اتت أكلها ولم تظلم منه شيئا»، وقوله تعالى: «وكان له ثمر» أي أن صاحب الجنتين له مصادر مالية أخرى فلا ديون على محاصيل الجنتين.

ومن أوجه الإعجاز في تلك الجنتين أن النخيل باوراقه الريشية المركبة يعطي المنظر الجميل ويقوم بصد الرياح من دون أن تتمزق أوراقه لأنها أوراق مركبة ريشية متعددة الوريقات، والوريقات جلدية متينة ذات شكل رمحي مدبب الأطراف مرصوص على العرق الوسطي للورق بطريقة معجزة متلائمة مع البيئة الحارة لأن نخيل البلح يوجد في المناطق الحارة، وبين هذا النخيل من أسفل أشجار وشجيرات متوسطة الحجم تصد الرياح من بين جذوع النخيل، ومصدات الرياح هذه من أحدث أساليب الزراعة، وتلي هذه الطبقة من النخيل إلى الداخل طبقة شجيرات مثمرة كما قال تعالى: «وجعلنا بينهما زرعًا»، وإلى الداخل توجد شجيرات العنب التي تترك مسافات للزراعة بينهما في مواسم تساقط أوراقها وتوقف إثمارها وهذا عادة يكون في الموسم الأبرد من ناحية درجة الحرارة.

والري السطحي والسفلي له مميزات عدة أنه يروي الجذور من دون بلل الأوراق فبلل الأوراق في العنب بالذات يساعد على إصابة الأوراق بالأمراض الفطرية مثل أمراض البياض.

كما أن الري السطحي يمنع سقوط الأزهار والثمار قبل عقدها، والبراعم الزهرية مما يساعد على زيادة الإنتاج وحماية الثمار ايضا من أمراض البياض الخاصة بأوراق وثمار العنب.

وتوافر المياه بين الجنتين يساعد على شق قنوات فرعية للري ووصولها إلى كل النباتات بانتظام ومن دون تفريق وقرب المياه من المزروعات يوفر عملية رفع المياه ودفعها للوصول إلى المزروعات.

ويمكن زراعة حوليات مخصبة للتربة مثل الفول والبرسيم بين النباتات «وجعلنا بينهما زرعًا»، كما أن ثمار العنب قابلة للعصر وصناعة العصير، وقابلة للتجفيف والحماية من الفساد فلا ضغط على المالك بتسويق المزروعات، والعنب يؤكل طازجا ومجففا ويشرب معصورا خاليا من الكحول.

والحال كذلك بالنسبة إلى ثمار النخيل التي يمكن أكلها طازجة ومجففة. كما تستخدم المنتجات الأخرى للنخيل من السعف والعراجين والجريد في صناعة مصدات الرياح وتكاعيب العنب، والأحبال، والمقاعد، والأسرّة وأقفاص تعبئة العنب والبلح، فلا يوجد فاقد من العنب والنخيل كما هو الحال في بعض المحاصيل التي تسبب مشكلات عديدة للملاك وللبيئة.

والنخيل على الحواف فلا يظلل شجيرات العنب مما يؤدي إلى فسادها بخلاف لو كان النخيل داخل المساحة المنزرعة ، ووجود النخيل على الحواف ييسر خدمة قطع الأوراق والليف والكرانيف والثمار من دون سقوطها على شجيرات العنب في المحيط المجاور للنخيل، كما أن وجود النخيل على الحواف يحمي ثمار العنب من فضلات وبراز الطيور والأمراض التي قد تنقلها تلك الفضلات للإنسان، من هنا كان هذا المثل من الأمثلة المعجزة بالوصف الذي ساقه الله تعالى لعباده، وهذه النعمة تحتاج إلى شكر « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله» [الكهف: 39]، فالله هو المنعم بالبذور والفسائل وعقل الزراعة، والجذور العرضية، والأوراق والأزهار والثمار والمال والماء والهواء والضوء، وثاني أكسيد الكربون، ومعادن الأرض كلها نعم تحتاج إلى شكر المنعم فكل شيء في الجنتين من نعم الله، هذا والله أعلم.